موسيقى

بدأت فرقة «أوسبري في» لموسيقى الروك نشاطها الموسيقي في قطاع غزة، وسط ظروف صعبة جداً، خصوصاً للموسيقيين الذين يقدّمون الموسيقى الغربية، لكن رغم ذلك نجحت في الوصول إلى جمهور غزي كبير

روك غزاوي أوسبري في

هيثم أبوزيد

فرقة أوسبري في (فيسبوك)

ينظر كثير من المهتمين بالمشهد الموسيقي في غزة إلى تجربة فرقة «أوسبري في» بقدر كبير من الإعجاب والدهشة، فمؤسسو الفرقة المتخصصة في أغاني الروك والميتال أصروا على المضي في مهمة شبه مستحيلة من أجل تقديم هذا النمط غير المعتاد في المجتمع الغزاوي المحافظ، وفي ظروف تلقي بظلال اليأس على كل من يفكر في شراء آلة موسيقية، أو يحاول أن يتعلم العزف عليها، أو يفكر في السفر للدراسة أو اكتساب الخبرة. وهي العقبات نفسها التي قد تواجه من يستهدف إنشاء فرقة للغناء التقليدي أو الإنشاد الديني والموشحات.

لكن العقبات والصعاب تشتد وتتضاعف حين يكون الغناء غربياً، وبآلات غربية، وبلغة غير العربية، وبأسلوب وطريقة غير معهودة بين الجمهور في قطاع غزة. فالفرقة تهدف إلى توصيل رسالة مؤثرة ومفهومة تحمل إلى شعوب العالم «صرخة غضب في مواجهة الظلم»، مع تأكيد أن شعب فلسطين يتطلع إلى السلام والعدل والحرية، وأن غزة لديها ما تقدمه إلى العالم بعيداً عما يفرض عليها من حروب ودمار.

وعلى غير المعتاد، لم يكن بين مؤسسي الفرقة متخصص واحد في الموسيقى. راجي الجرو، المطرب الرئيسي للفرقة يعمل محاسباً، كما أن ابن عمه مؤمن الجرو، كاتب أغنيات الفرقة يعمل بالمحاماة. الإرادة القوية لابني العم اجتذبت شابا ثالثاً من العائلة هو سائد الجرو، وأيضا شجعت المهندس الزراعي سراج الشوا الذي يعمل منتجاً للموسيقى الإلكترونية على الانضمام للفريق، بعدما وجد فيه فرصة لإشباع هوايته في العزف على الكيبورد الإلكتروني. ولم يمر وقت طويل حتى التحق بهم السويسري توماس كوتشرهانز، عازف الطبل، الذي كان يعمل ضمن النشاط الإغاثي الإنساني في القطاع. عندما استمع كوتشرهانز إلى الفرقة أول مرة لم يستطع أن يخفي دهشته، التي بلغت حد الصدمة. اختار المؤسسون اسم «أوسبري في»، وكلمة Osprey تعني طائر العقاب الجارح، الذي يحلق في السماء عالياً، ويرمز به دائماً إلى التفوق والكبرياء، والقدرة على مواجهة الصعاب.. ويعبر حرف V، عن رقم خمسة في الرموز اللاتينية، في إشارة إلى عدد أعضاء الفرقة التي انطلقت عام 2019 من خلال نشر مقاطع الفيديو.

دعنا نتحدث عن الشر

قبل عشرين عاماً، تعرف الصبيان ابنا العم مؤمن وراجي الجرو على موسيقى الروك، فانشغلا بها وهيمنت على تفكيرهما، وقضيا وقتاً طويلاً في استكشافها ومحاولة فهمها، إلى أن سيطر عليهما الأمل في إنشاء فرقة خاصة بهما تقدم الروك والميتال في قطاع غزة. ومبكراً، أدركا أن الطريق صعب جداً، لكن يبدو أن الأمر لم يكن مجرد صعوبة، بل كان أشبه بالمستحيل. وقد قرر آل الجرو مواجهة المستحيل، واقتحام العقبات، وهو ما استلزم إرادة حديدية وجهوداً كبيرة جداً.

تمثلت العقبة الأولى في خلو القطاع من أي مُعلم للعزف على آلة الغيتار، فلم يكن أمام مؤمن إلا التعلم عبر الإنترنت، ومتابعة مقاطع العزف المنشورة على «يوتيوب»، وفي الوقت عينه انخرط راجي في نشاط متواصل لفهم كلمات الأغاني التي تقدمها فرق الروك العالمية، وإدراك الرسالة التي تحملها إلى المستمعين المهتمين بهذا النمط الموسيقي في كل مكان. كان مهموما بتطوير قدرة محلية فلسطينية على إنتاج كلمات باللغة الإنكليزية تتشابه مع الروح التي يقدمها الروك الغربي، لكنها تحمل إلى العالم حقيقة الجرح الفلسطيني الذي لم يندمل، كما تحمل رسالة محبة إنسانية من قطاع غزة إلى كل مكان.

لم تسمح ظروف القطاع المحاصر للفرقة أن تقدم حفلاً واقعياً على خشبة مسرح أو أن تلتقي بالجمهور في مواجهة مباشرة. كان الإنترنت و«العروض الرقمية» وسيلتهم الوحيدة لإيصال صوتهم إلى أهالي غزة، وإلى المنشغلين بالهم الفلسطيني حول العالم. حولوا غرفاً صغيرة في بيوتهم إلى استوديوهات تسجيل وإنتاج، وأنفقوا على التجهيزات على قدر إمكاناتهم المحدودة. تحتاج غرفة التسجيل إلى عزل صوتي، وتثبيت للآلات، وإلى كاميرات للتصوير، وإلى إضاءة مناسبة، وحواسيب، وبرامج للصوت والمونتاج. ليس باستطاعة أحد في غزة أن يحصل على كل هذه الإمكانات إلا إذا ساندته جهات نافذة، محلية أو دولية. بعد نحو عامين من الانطلاق، أحيت الفرقة أهم محافلها على الإنترنت، في إبريل/نيسان 2012، حيث شاركهم المغني البريطاني المناصر للقضية الفلسطينية روجر ووترز، مؤسس فرقة بينك فلويد، في حفل بعنوان «أعيش من أجل غزة»، بهدف جمع التبرعات لدعم الموسيقيين الفلسطينيين. كما اشترك في الحفل عازف الغيتار والمغني الأميركي توم موريلو، من فرقة «ريج أغينست ذا ماشين»، والمغني الفلسطيني محمد عساف. بعدما اطمأنت الفرقة إلى مستوى التفاعل والإعجاب من شباب قطاع غزة، قررت إصدار أول ألبوم خاص بها، مكوناً من خمس أغنيات، ليتجانس مع اسم الفرقة أو مع عدد أعضائها. جاءت الأغنيات كلها باللغة الإنكليزية، وحملت معاني إنسانية عميقة. وتمثيلاً، يمكن أن نشير إلى أغنية «قطرات الحياة» التي اشترك في كتابتها مؤمن وراجي الجرو، وتتحدث عن التشابه بين الماء وبين الطبيعة البشرية، فالماء مصدر الحياة، ورمز النقاء، لكنه قد يصبح قوة مدمرة بالسيول والفيضانات. وكذلك الإنسان، يحمل النقاء والخير في أصله وفطرته، لكنه يتورط أحياناً في الفوضى والدمار. ورغم كل شيء، فإن المطر قادر على محو كل الأدران، وإزالة كل الآثار السلبية، مع إتاحة فرصة لميلاد جديد، ونشر مشاعر التفاؤل.

> لم يكن بين مؤسسي الفرقة الفلسطينية متخصص واحد في الموسيقى
>
> بعد السابع من أكتوبر الماضي توقف نشاط الفرقة الموسيقي

قطرات الحياة

من الأمثلة المهمة أغنية Marble أو «رخامي» التي استوحت الفرقة معانيها من كلمات للفيزيائي الأميركي كارل ساغان، وتتناول التعقيدات البشرية، مثل الكراهية والحقد والقتل، وكذلك أغنية Lost and Secure التي تحكي قصة شاب فلسطيني لجأ إلى أوروبا، طلبا لحياة أفضل له ولخطيبته. لكن تأتي الحرب على غزة، لتخطف تلك الخطيبة، فيفقدها من دون أن يكون بإمكانه وداعها.

خلال سنوات، بذل المغني الأساسي في الفرقة راجي الجرو جهداً متواصلاً كي يصبح مؤهلاً للغناء والعزف في فريق روك. صحيح أنه لم ينل تدريباً احترافياً بالغناء ضمن فريق غربي ووسط الجماهير المحتشدة للاستماع المباشر، لكنه استطاع أن يكون على مستوى متميز من الجهوزية، التي نالت الإشادة من موسيقيين ومغنين عالميين. أتقن راجي اللغة الإنكليزية، كما أتقن العزف على الغيتار الكلاسيكي، والإلكتروني، وأيضا البيانو. ويرى أن تجربة الفرقة تعكس وجهاً مختلفاً لغزة، وتظهر تميزها الثقافي والحضاري.. يتمنى راجي أن تصبح فرقته «ميتاليكا» الفلسطينية على غرار فرقة ميتاليكا الأميركية، أو أن تصل إلى مكانة فريق بينك فلويد. وينظر أعضاء الفرقة إلى موسيقى الروك، على أنها تتميز بكلماتها العميقة، وتجابه واقعهم المعيشي في غزة، في ظل تعرضهم باستمرار، لظروف سياسية، واجتماعية، ونفسية، لا يمكن تحملها إلا من خلال التعبير الفني. ويشير مؤمن إلى أنه يقضي ساعات مع كتبه، وموسيقاه، باحثاً عن عالم آخر، فيه بعض من المنطقية التي يفتقر إليها المجتمع. ويعتبر أعضاء الفرقة أن موسيقى الروك تمثل أقوى أشكال التعبير الموسيقي عن المعاناة الفلسطينية عموما، وعن المأساة في قطاع غزة على وجه الخصوص. يرى أعضاء الفرقة أن قدرة الروك على تحمل ونقل المشاعر المتناقضة والعميقة كبيرة جدا، وبدرجة لا تجاريها أي موسيقى مغايرة. بعد السابع من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، توقف نشاط الفرقة. حلق العقاب الجارح في سماء غزة، ثم لم يترك الدمار له مكانا للهبوط.

«أنا» علي المولى بصوت مروان خوري

علي موره لي

من رحم إنسجام هارموني ثلاثي طابعه حزين وقراره نغمة الـ«مي»، صُمّم إلكترونياً كمشهد صوتي (Sound scape)، تنبثق المقدمة الآلية لأغنية مروان خوري «الأنا» على مقام الكرد وعلى نفس الموضة التركية المعهودة، بلون الكمانات وصبغة القانون والكلارينيت، وذلك عقب ومضة تمهيدية من نغمات عدة على غيتار كهربائي بنكهة الجاز. المختلف شكلاً عن تلك الموضة، التي لا تزال تؤثر منذ عقدين ونصف بأغنية البوب العربية الرومانسية لمنطقة شرق المتوسط، يتجلى أولاً من ناحية الصياغة الموسيقية، حيث تم استبدال آلة الدف الصوفيّة بشبيه رقميّ لآلة الدرامز، الأمر الذي زاد طابع البوب الغربي وقلّل حدّة اللون التركي.

ثانياً ومن ناحية التصميم البنائي، تميّزت الأغنية بقصر المدخل، الذي لم يزد عن بيتين، جرت إعادتهما مرةً واحدة ولمدة عشر ثوان، قبيل الانتقال إلى اللازمة عند فاصلة الأقل من دقيقة من بدء الكليب.

أما الاختلاف الأكبر والأكثر لفتاً للانتباه، فيبقى في المضمون، وتحديداً في النص الشعري، الذي ألّفه الشاب اللبناني علي المولى، إذ تكاد لا توجد أغنية عربية جماهيرية واحدة في تاريخ الغناء العربي كانت موضوعتها «الأنا» (Ego)، ناهيك عن أن تكون «الأنا» عنواناً لها.

لئن طُرحت الأنانيّة والطمع من قبل ضمن إطار العدالة الاجتماعية، كما في أغنية المصري خالد عجاج سنة 1995 «في ناس»، كلمات بهاء الدين محمد، ألحان حسن أبو السعود وتوزيع أشرف عبده، فإن سَبْق المولى ككاتب لكلمات الأغاني، إنما يتمثّل في طرحه المفاهيمي لموضوعة «الأنا»، بحيث لا يقف عند المصطلح السيكولوجي وإنما يغور في الثقافي مُتّخذاً موقفاً رافضيّاً مضاداً للأيديولوجيا السائدة، يستأهل الوقوف عنده. يُمثّل المولى جيلاً جديداً من المبدعين، سواءً في الأدب أو الموسيقى وسائر الفنون، لم تعد تعنيه الحدود المُنشأة لفصل النخبوي عن الجماهيري، الهادف عن التجاري، اللغة الفصحى عن اللغة المحكيّة، والأغنية الرفيعة عن الجماهيرية والشعبية، وما عُرف في ما مضى بالأغاني الهابطة، وصار يُعرف اليوم بأغاني القاع.

> تكاد لا توجد أغنية عربية واحدة موضوعها «الأنا»

هكذا وانطلاقاً من المقاربة الجديدة الموحِّدة والعابرة للطبقيّة الثقافية إزاء مديات التعبير عن الذات، لم يكن تكليفه بكتابة قصيدة، لكي تلحّن كأغنية جماهيرية خفيفة مثل «إحساسك صنم» غنّاها سعد رمضان سنة 2014 ولحّنها ووزّعها صلاح الكردي، مجرّد وسيلة للكسب المادي وإنما فرصة، ليس فقط لكي يُعرف كشاعر، بل لكي يُعترف به كشاعر، في ظلّ واقع ذائقةٍ معاصرة، لا ترتبط القيمة الفنية سوى بمقدار الرواج وارتفاع نسب المشاهدة.

فرصةٌ، لم يكن ليمنحها له كتابه الأول المعنون «أنا أقذر رجل في التاريخ»، الذي طُبع بالعربية الفصحى سنة 2011 وضم 25 قصيدة، وذلك وفقاً لما صرّح به خلال مقابلة أجرتها معه قناة سكاي نيوز عربية، على هامش حفل تكريم أُقيم له السنة الماضية بوصفه أصغر الشعراء سنّاً، بقصر يونيسكو في العاصمة اللبنانية بيروت.

تُجسّد أغنية «الأنا» على أكمل صورة حال الانفتاح والإحتضان، التي باتت تجمع الفنانين الشباب بالأغنية الجماهيرية العربية، حين لا تعود العلاقة محض غائيّة إقتصادية يشوبها الحرج وإنما يتم تبنّيها ويُستثمر في قدرتها على الوصول فكرياً وفنيّاً. قد ساعد على ذلك علوّ كعب مروان خوري وتبلور مسيرته الفنية بصفته من بين النجوم الأشدّ حساسيةً في التعبير والأكثر جديّة في الطرح الموسيقي والموضوعاتي وبالتالي، الأكثر احتمالاً في الانجذاب إلى كتّاب نصوص غير تقليديين.

الفنان اللبناني مروان خوري (العربي 2)

أما بالنسبة إلى علي المولى، الذي يحاكي في شخصيته الفنية (Persona) شعبيّة أحمد فؤاد نجم، كبرياء سعيد عقل وطرافة زياد الرحباني، فإن طرح موضوعة الأنا إنما يتم من منظور مُغاير خارج عن المألوف، مضادٍّ للثقافة المعاصرة المتمثّلة بمواعظ التنمية الذاتية (Personal Development) التي تقوم خطابياً على نبذ الأنا وتقصّي سُبل فنائها، بينما تحضّ سلوكياً على ممارسات تحت عنوان «الأمثلية» (Optimisation) من تغذية ورياضة وعناية بالروح والجسد، تتركّز كلها حول الأنا وتصبّ فيها.

فمن منظور نقدي أقرب إلى النزعة الكلبية (Cynicism)، لعله نابعٌ من دراسته علم النفس في الجامعة اللبنانية، يطرح المولى التسليم بالأنا حقيقةً وجوديّة إنسانية، كما تقول الكلمات في مدخل الأغنية : «بتعرفلك حدا مش أناني، ما بيبني سعادتو عضهر التاني» ليكون التسليم منطلقاً إلى فهم فنومنولجي، كما يرد في اللازمة : «كلنا عنا الأنا، في ناس بتخبّيها، وفي ناس بتبيّنا».

كأنه يُشير إلى ثنائية علم النفس السلوكي «النرجسي الحسّاس» (Vulnerable Narcissist) مقابل «النرجسي العنجهي» (Grandiose Narcissist) مؤدّياً من خلال القبول بالأنا وتمظهراتها إلى نقدٍ للأنانية، ينفرط في الكوبليه، يكون أقربَ إلى الواقعيّة وأبعد عن الخطابيّة، يبقى مفتوحاً، يكتفي بالتوصيف، دون استخلاص العبر أو الدعوة إلى الإصلاح والتغيير : «عنا طبع غريب، مفكرين الأرض بتبرم كرمالنا .. بدنا شوي من كل شي، عطول بدنا أكتر، منجرب نكتفي، ما منقدر».